



الإنسان إلا من رحمه الله واجتباه، وامتن عليه وعلمه، وأدبه وهذه، وأنعم عليه وأكرمه، ظلوم كفار، جاحد جاهم، ظالم مقتضى، كاذب إذا وعد، وفاجر إذا خاصم، وحاذف إذا كره، وظالم إذا حكم، ومستبد إذا ملك، وكذب خيل إذا فتحت الدنيا عليه أبوابها، وناكر للجميل إذا وجد البديل، وكافر للعشير إذا ذكر بالمعروف، لا حدود لظلمه، ولا نهاية لبغيه، ولا نجاة من كيده، ولا سلامه من شره، دسّاس نمام، مغتاب أبداً وحاذف دوماً، متآمر كالعدو، وخبيث كالشيطان، لا يفكر إلا في نفسه، ولا يسعى إلا إلى مصلحته، ولا حسن للنية عنده، ولا نقاء سريرة في نفسه، في الشر يفكر وهو إليه سباق، وبالخير لا يسعى وهو منه بعيد.

ذلك هو الإنسان الذي يعيش لنفسه، ولا يفكر إلا في ذاته، ولا يخطط إلا لمصالحه، لا يهمه الآخر، ولا يفكر فيه، ولا يعنيه أمره، ولا يهتم لشأنه، وينسى أنه لا يستغني عن غيره، ولا يستطيع العيش دونه، وأنه مهما كان وضعه، وسمت منزلته، وارتقت درجة، فإنه يحتاج إلى غيره، وينشد وده، ويطلب الحاجة منه، إذ لا تستقيم الحياة بدونهم، فهم على بساطتهم ونقاء سريرتهم صبغة الأرض وطيب الحياة، ولكن الإنسان الباغي المستبد، الظالم الجهول، يأبى أن يتعلم، ويرفض أن يأخذ العبرة من غيره، ويستفيد من تجارب من سبقة، فيمضي قدماً في غيه، سادراً أعمى لا يرى، وجاهلاً لا يفقه ولا يتعلم، فلا يرده موت، ولا يصدّه عن ظلمه مصيبة.

قد يقترف الإنسان معصيةً ويرتكب إثماً، وقد يخطئ في جنب الله عز وجل وفي حق الناس، في لحظات السهو والغفلة، أو في ساعات الضعف والفطرة، وهو الخطايا ذو المعصية، التي بها عُرف وعنها قد أثر، وقد يندم ويُتوب، ويعقد العزم على ترك المعصية والتخلي عن الخطيئة.

لكن الإنسان يتربص بأخيه ويكيده له، ويراقبه ويتضيق عليه ولا يرحمه، بل يحزن إن أصاب وأجاد، ويفرح

إن أخطأً وعصى، ويمد له في المعصية لئلا يتوب، ويونغر صدره لئلا تصفو نفسه ويتراءجع، ولا يهمه من أمره الستر أو التوبة، إنما غايتها الفضيحة والابتعاد أكثر عن الطريق السوي والفضيلة، فتراه يغلق في وجهه الأبواب، ويعقد أمامه السبل، ويونغر ضده القلوب، إذ لا يرضيه منه الصفاء، ولا يعجبه منه الرضا، وهو يعلم أن العبد إذا تاب وآب، نال رضا رب العباد، وحاز على الخير والبركة.

ولكن الله سبحانه وتعالى وهو الرحمن الرحيم، الغفور الودود، فتح للإنسان العاصي، وللعبد المخطئ ألف بابٍ وبابٍ للتوبة، فلا يغلق دونه باب، ولا يعقد أمامه سبيل، ولا يحكم عليه بالمستحيل، بل ييسر له كل شيء؛ ليكفر عن معصيته، ويقلع عن ذنبه، ويتوقف عن خطئه، فهو جلٌ في علاه يفتح أبواب التوبة على اتساعها، وينزل من عليائه في كل ليلة، يجيب دعوة الداعي، وتوبة التائب، ويعفو عن المخطئ، ويسامح المسيء، ويبارك في خطا العبد، ويمد له في عمره، وينسأ له في أثره، ويفتح عليه من واسع رزقه، ويفرح له إذا أقبل، ويبش في وجهه إذا استغفر، ويسعد به إذا ندم وعزم على التوبة والإتابة.

وقد تكفل الله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شيء، بستر عبده إذا تاب، والعفو عنه إن استغفر، وقبول توبته إن ندم وعزم صادقاً، وأصر أن يقلع ولا يعود، ويستقيم ولا ينحرف، ويصيّب ولا يخطئ، فلا يفضحه في المجالس، ولا يشيع معصيته بين الخلق، ولا يدعوه لكتش ستره، وفضح نفسه، وتعيم خطئه، بل يرعاه سبحانه بالستر، ويكلأه بالحفظ، و يجعل صورته بين العباد مقبولة، وسيرته عند الخلق محمودة، وقد علّم رسوله الكريم محمدًا صلى الله عليه وسلم هذا الأدب، وأنشأه على هذا الخلق، فكان خير خلق الله أديباً وخلقاً.

الله سبحانه وتعالى لا يطلب من عبده إذا أتاهه وتاب، إن كانت معصيته بينه وبين الله عز وجل، ولا علاقة لها بالعباد، ولا حقوق لهم عليه، ولا مظالم في عنقه تجاههم، سوى أن يكون صادقاً ذا عزم وإصرار، يمضي بها بلا تردد، ويوافق بها بلا انكفاء، وألا يكون بتوبته خواراً ضعيف العريكة خائب العزيمة، سريع العطاب كثير الخطأ، قليل الأوبة كثير المعصية.

أما العبيد، شرار الخلق، أهل السوء، قرون الشيطان، فلا يرضيهم ما ارتضاه الله سبحانه وتعالى لنفسه العالية، ولا ما قبل به وهو إله الكبير المتعال، المتفضل عليهم وعلى كل العباد، فلا يقبلون توبة الإنسان وهو منهم، ولا ينسون زلته وهم سبها، وعندهم مثلها، وهم منه أسوأ، وأكثر خطأً، وأشد فحشاً، وأقبح نفساً، ولكنها طبعتهم المعوجة، وقلوبهم العفنة المقيمة، ونفوسهم المريضة السقيمة، وحقدتهم الأسود، وعيونهم الضيق، وحسدهم الأعمى، وضيق صدورهم، وقلة بصيرتهم، وانحراف فطرتهم.

هم يظلون أنهم أحسن حالاً، وأفضل نفساً، وأنقى سريره، وأنهم بعيدون عن الخطأ، ومحصنون من المعصية، أو أنهم بعيدون فلا يراهم أحد، ومخفيون فلا يكشف سريرتهم إنسان، ولا يفضح سلوكهم آخر، ونسوا بأن الله سبحانه وتعالى قد توعد أن يفضحهم ولو كانوا في بيوتهم، وفي أسرهم وبين أطفالهم، أما علموا أن من تتبع عورة امرئٍ تعقب الله عورته وفضحه ولو في عقر داره، ألا يعلمون أن الله لا يحب فضح عبده، ولا يرغب في أن يكسر نفسه، ويريد له أن يكون بين الناس عزيزاً إذا تاب، وكريراً إذا أتاه، وهذا سيرة حسنة وسمعة طيبة إن آب واستقام.

لكنهم يأبون الستر، ويحبون الفضح، ويفرجون بالإساءة، ويسعدون بالمضرة، ولا يعنيهم كسر النفس، وإعظام الروح، إنهم بسلوكهم الشائن يفسدون ويضررون، ويجرون ويعتدون، ويخالفون الله ولا يطاعون، ويعارضون رسوله الكريم ولا يتبعون، إنهم شياطين في أفعالهم، ويهود في سلوكياتهم، وإن ليسوا الأبيض، وحملوا المسحة، وتمتموا بالسنن تسبيحاً، وطأطأوا الرؤوس سجوداً، وحنوا الظهور ركوعاً، وظهروا أمام الناس وهم يصلون، وبدوا وكأنهم صالحون صادقون، يصلحون ولا يفسدون، ويسعدون ولا يسيئون، يقولون أطيب الكلام، ويأتون بأفضل الأفعال، ظانين أنهم الأحسن، ولكنهم في الحقيقة هم

الأخسرين أعملاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

أيها العبيد لا تكونوا عوناً للشيطان على إخوانكم، فلا تتعقبوا عوراتهم، ولا تفضحوا معاصيهم، بل أعينوهم على التوبة، وساعدوهم على الأوبة، وكونوا لهم عوناً وسندأً، مدوا إليهم الأيادي، وانتشلوهم بنبلٍ، وخذوا بأيديهم بشهامة، وتعاونوا معهم بعزةٍ وأنفةٍ وكرامة، ولا تكونوا سبباً في انحراف المخطئين أكثر، ولا سبباً في إصرارهم وأخذهم العزة بالإثم، فأنتم من يتحمل المسؤولية، وعلى عاتقكم يقع وزرهم، وعند الله عز وجل في الدنيا ويوم القيمة حسابكم.

إنه الإنسان المغدور التاله، الذي يظن نفسه ويوهمها أنه قيمة كبيرة، وصاحب منزلةٍ عاليةٍ رفيعة، ومسؤولية عظيمة، يتصرّد المجالس، ويتقدّم الصفوف، ويسمع له الناس وينصتون، ويتحدث ويسمعون، فيفتّاب ويُفْضَح، وينم ويهزأ، ويتهكم ويُسخر، ويحكم ويُسلط، معتقداً أنه ظل الله على أرضه، وخلفته بين خلقه، يصنفهم كيف يشاء، ويقسمهم كما يريد، ويسمّيهم ويعدّهم، وفق معاييره، وحسب مقاييسه، ولو كانت عوجاءً وعرجاءً وهي في الغالب كذلك وأسوأ، بل هي شوهاءً وعمياءً، وباطلةً وظالمةً، ولا فرق عنده في المعايير، طالما أن الناس تسمع كلامه، وتأخذ بأحكامه، وتقبل بتصنيفاته.

الإسلام اليوم

المصادر: